رزق الشيطان

٢٤ - عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ :

«قَالَ إبْليسُ : يَارَبِّ ، لَيْسَ أَحَدٌ منْ خَلْقِكَ إلاَّ جعَلْتَ لَهُ رِزْقاً ومعِيشةً ، فَمَا رِزْقى ؟

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ :

«مَا لَمْ يُذكَرْ عَلَيْهِ اسْمِى» (١)

قد كان إبليس يُسمَّى طاووس الملائكة ، وكان يزهو بخيلاء بينهم ، وهذه الخُيَلاء ، وهذا الكِبْر هو الذى جعله يقع فى المعصية ، ولأن إبليس خُلِق مُخْتارًا ، فقد كان مَزْهُوًا باختياره لطاعة الله ، قبل أنْ يقوده غروره إلى الكفر والمعصية.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨ / ١٢٦) ، وأبو الشيخ فى العظمة (١١٥١) ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣ / ٣٥٠) ط. دار الفكر بيروت وعزاه لابن مردويه .

وقد أخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (١١١٨١) عن ابن عباس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : «قال إبليس لربه : يا رب أهبطت آدم ، وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسل ، فما كتابهم ورسلهم ؟ قال : «رسلهم الملائكة والنبيون منهم ، وكتابهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال : فما كتابى ؟ قال : كتابك الوشم ، وقرآنك الشعر ، ورسلك الكهنة ، وطعامك ما لا يذكر اسم الله عليه ، وشرابك كل مسكر ، وصدقك الكذب ، وبيتك الحمام ، ومصايدك النساء ، ومؤذنك المزمار ، ومسجدك الأسواق » قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١١٤) : «فيه يحى بن صالح الأيلى ضعفه العقيلى » .

ولذلك لم يَكَدْ يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم ، حتى امتنع إبليس تكبُّرًا منه ، ولم يجِدْ نفسه على طاعة الله ، فمعصية إبليس هى معصيةٌ فى القمة ؛ لأنه رَدَّ الأمر على الآمرِ ، وظَنَّ أنه خَيْر من آدم .

ولم يلتزم إبليس بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى ، فطرده الله تعالى من رحمته وجعله رجيمًا [1].

وإبليس لم يكُنْ من الملائكة ؛ لأنه من الجن بنصِّ القرآن .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ [2] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

لذلك لا يصحُّ أن يكون «إبليس» محلَّ خلاف : أهو من الملائكة أم لا ؟

فقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

نَصٌّ صريح يثبت جنسية إبليس ؛ فهو من الجن ، ولذلك كان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى ؛ لأن الجن داخلون فى قانون الاختيار .

فإنْ ألزم الجنىّ نفسه بمنهج الله إلزامًا يتساوى به مع الملائكة وجبَ عليه أنْ يقوم بذلك ، ولكنه لم يفعل ، وكان من الواجب أن يطيع إبليسُ الأمرَ .

---

(١) الرجم : الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن . ورجيم : ملعون مرجوم باللعنة مُبْعَد مطرود من رحمة الله . [لسان العرب – مادة : رجم] .

(٢) الفسق : العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق . ومعنى فسق عن أمر ربه ، أى : جار ومال عن طاعته . [لسان العرب ـ مادة : فسق] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى أمـر الملائكة بالسجود لآدم ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أنْ يسجد .

فلو كان إبليس أعلى من الملائكة لَكانَ أَوْلَى له أن يستـجيب لأمر الخالق الأعلى ، ولا يعصى ويـتأبَّى ، أمَا وإنه كـان أقلَّ من الملائكة فكان لابُدَّ من باب أَوْلَى أنْ ينصاعَ لأمر الله .

ولكنه عصى ، فوصفه الحق سبحانه بالفسق :

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

يعنى : أن هذا الفُسوق أمر يجـوز منه ، لكن الملائكة لا يعصـون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

وإنْ تسـاءل أحـد : ولماذا جـاء الحـديث عن إبليس ضـمن الحـديث عن الملائكة ؟

نقول : هَبْ أن فَرْدًا مُـخْتارًا من الإنس أو من الجن التزم بمنهـج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يَعْصِ.

أليـستْ منزلتـه مـثل الملَك ، بل أكـثر من الملَـك؛ لأنه يملك الاخـتيـار ؛ ولذلك كـانوا يُسمُّـون إبليس طاووس الملائكة ، أى : الذى يزهو فى مَـحضـر الملائكة ؛لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفَّذها .

فصـار لا يعصى الله ما أمـره ويفعل ما يُؤْمَـر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجـبورون على الطاعة ، لكنه كـان صالحًا لأنْ يُطيع ، وصالحـاً ـ أيضًا ـ لأنْ يعصى .

ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة مُتميِّزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميُّزه أنه يحضر حضور الملائكة .

والحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب إلى المعصية دخل ، ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن فى الحياة الدنيا وحدها .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مَقْهورًا على الطاعة ما كان يستطيع أنْ يعصى ، ولكن معصيته جاءت من أنه خُلِق مختارًا .

فلما حضر إبليس مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة]

والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ، لأنه سبحانه سخَّر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مُدبِّرات أمر (١) ، ومنهم حَفَظة (٢) ، ومنهم مَنْ هو بين يَدَى الله .

---

(١) وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه :﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات] قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٤٦٦) : «قال على ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع ابن أنس والسدى : هى الملائكة . زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، يعنى بأمر ربها عز وجل» .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .... ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام] . ويقول: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] . أى : يحفظون بدن الإنسان ، وآخرون يحفظون عمله ويُحْصونه .

فلم يَكُنْ السجود للملائكة خضوعًا من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ؛ ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخَدَمة الإنسان ، لكن الملائكة المقربين لا يدرون شيئًا عن أمر آدم .

ولذلك يقول الحق سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العَالين عَمَلٌ مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لَمَنْ لهم عمل مع آدم وذريته .

وهؤلاء هم الذين قال الحق سبحانه عنهم :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ (١) مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ....﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وسبحانه أيضًا القائل :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٢) ﴿١٨﴾ ﴾ [ق]

---

(١) المعقبات : الملائكة ، ملائكة الليل تُعقِّب ملائكة النهار ، وملائكة النهار تُعقِّب ملائكة الليل ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل ، وصعد ملائكة النهار، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقبًا أى نُوبًا . [لسان العرب ـ مادة :عقب] .

(٢) أى : أن ابن آدم ما يتكلم بكلمة إلا ولها من يرقبها معد لذلك ، يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة . [راجع : ابن كثير ٤ / ٢٢٤] .

وهؤلاء هم الملائكة الموكلون بمصالح الإنسان فى الأرض ، المطر مثلاً له مَلَكُه ، الزرع مثلاً له مَلَكُه ، وكل شىء له مَلَكٌ .

فالحق سبحانه يتحدث عن الملائكة الذين لهم صِلَة بالإنسان مثل : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل ، ورضوان ، ومالك .

وهناك ملائكة اصطفاهم الله للتفرُّغ لعبادته ، فهم العَالُون لا يدرون بهذا الخَلْق كله .

فالأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحُرَّاس السماء وغيرهم ممن ليستْ لهم مهمة مع الإنسان ، بل لهم رسالة مع عوالم أخرى .

الحق سبحانه هو خالق كل الخلق؛ ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة ، واستبقاء نوع ، فاستبقاء الحياة بالقوت [1] ، واستبقاءالنوع بالزواج والمصاهرة.

إذنْ : فمن ضمن ترتيبات الخَلْق أن يُوفِّر الرزق لكل دابة تدبُّ على الأرض .

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا [2] كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود]

(١) القوت : ما يمسك الرمق من الرزق . وفى الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام ، وفى الحديث :اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا . أى : بقدر ما يمسك الرمق من المطعم . [لسان العرب ـ مادة : قوت] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤٣٦) عند تفسير هذه الآية : «أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض ، صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أى : يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض ، وأين تأوى إليه من وكرها ، وهو مستودعها .

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حَقٌّ لكلِّ مخلوق خلقه الله ، لكنه لم يفرض هو على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق كل مخلوق ، فهو يعلم مُسْتقره ، وأين يعيش ، ليوصل إليه هذا الرزق .

والمستقرُّ : هو مكان الاستقرار . والمسْتَوْدع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعْلِمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر، فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

فما دام الحق سبحانه هو خالق كل الخَلْق ، فهو رَبُّ الجميع ، والجميع مسئولون منه .

فَعَطاء الربوبية يشمل الجميع ، ولأنه سبحانه ربُّ العالمين ، فالكون كله لا يخرج عن حُكْمه ، فليطمئن خَلْق الله فى الدنيا أن النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته .

فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول : لن أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض فى الكون ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع ولا الغلاف الجوى يستطيع أن يبتعد عن الأرض ، فيختنق الناس جميعًا .

إذنْ : فالله سبحانه وتعالى يريد أنْ يُطمئِن عباده أنه رَبٌّ لكل ما فى الكون ؛ لأن الله سبحانه وتعالى مُسَيْطر على كونه ، وعلى كُلِّ مَا خلق .

إنه رَبُّ العالمين ، وهذه تُوجب الحمد ، فكل مخلوق مُطمئن إلى رزقه ، فهو واثق أن الله سيرزقه ، لأنه رَبُّ العالمين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [العنكبوت]

والدابة: هى كل ما يدبُّ على الأرض ، والمراد بها كل ذى حركة حَيَّ ، ومع أن هناك أشياء صغيرة لا نسمع لها دَبِيبًا مثل النملة وغيرها ، ولكن بعض الناس يبالغ ويقول : فلان يسمع دَبَّة النملة .

ولكن الأمر مع الخالق سبحانه يختلف ، فهو سبحانه يعلم كل شىء ، ولا تخفَى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو يسمع دبيب النمل ويراه أيضًا .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ... ﴾ [العنكبوت]

أى : ليس كل مخلوق يحمل رزقه معه ، فكثير من الدوابِّ لا تحمل رزقها ، ومع ذلك تعيش ولا تموت جوعًا .

ولكن ، هل هى لا تحمل رزقها لأنها لا تقدر على حمله ؟

هذا صحيح .. أو : تقدر على حمله ، ولكنها لا تفعل .

فالحشرات مثلاً ، مثل القمل والبرغوث والبعوض وغيرها ، هل هى تحمل رزقها ؟

لا .. كذلك الميكروبات التى منها ما يصيب الناس بالأمراض لا تحمل رزقها معها ، فأنت لو نظرتَ إلى كثير من الدواب تجدها لا تحمل رزقها معها .

فمثلاً : الحمار يستطيع أن يحمل كمية من البرسيم تكفى أكْله يومين ، ولكنه بعد أن يشبع لا يلتفت إلى البرسيم ، ولا يفكر فيما سيأكله غدًا ، وكذلك باقى الحيوانات .

ولذلك قالوا : ليس هناك أحد يدَّخِر رزقه إلا الإنسان والفأر والنمل .

وهذا كلُّه جعله الله لحكمة ؛ لأنه ليس قصوراً من الله تعالى أن يجعل أكثر الدوابِّ لا تحمل رزقها ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن الخالق الذى خلق هذه العجماوات هو الذى يرزقها أيضًا ، دون أن تحمل رزقها معها .

وأنت لو كنت فى الريف مثلاً ، وجلستَ تأكل وسقط منك جزء من بلحة أو قطعة صغيرة من اللحم .

انظر إليها بعد قليل تجد أن عددًا قليلاً من النمل دار حولها ، ثم تركها وانصرف ، وبعد ذلك تعود هذه المجموعة الاستطلاعية إلى قرية النمل ، وتخبرهم عن هذا الرزق وحجمه ، وكم نملة يحتاجها لنقله .

حينئذ تأتى مجموعة كبيرة من النمل يحملون قطعة اللحم الصغيرة مثلاً ، ويجرُّونها إلى قريتهم أو جُحْرهم ، حتى تتغذى عليها جماعة النمل.

وإذا أردتَ أن تختبر مدى دِقَّة النمل وذكائه يمكنك أن تُلقِى قطعة سكر صغيرة ، ثم تنظر إلى عدد النمل الذى سيحملها بعد قليل ، وبعد ذلك أَلْقِ قطعة أخرى ضِعْف وزن الأولى ، وانتظر حتى يأتى النمل لحملها ، وانظر إلى عدد النمل ستجد أن عدد النمل فى المرة الثانية ضِعْف العدد فى الأولى .

لأنه بمجرد أن ينظر النمل إلى أى غذاء يُقدِّر بالضبط عدد النمل القادر على حَمْله ونَقْله إلى بيوت النمل .

والأعجب من ذلك ما وجده العلماء فى قُرَى النمل ، حيث وجدوا أن أمام أعشاش النمل فتاتًا صغيرًا أبيض اللون ، فأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا الشىء ، فوجدوا أنه الزريعة الموجودة فى كل حبة من الحبوب ، وهى التى تنبت منها الحبة حينما تتعرض للرطوبة .

لقد وجد العلماء أن النمل قد اقتلع هذه الزريعة ، وألقى بها خارج عُشِّه ، فلا يُدْخِل الحبة ، وفيها هذه الزريعة ، لماذا ؟

لأن هذه الحبَّة الصالحة للإنبات لو دخلتْ العُشَّ بمجرد أن تصيبها الرطوبة ستنبت وتسُدُّ عُشَّ النمل وتهدمه .

فتجد النمل ينزع هذه الزريعة ، ويُلقى بها خارج العش حتى تظل الحبوب على طبيعتها صالحة للاستعمال ، دون أن تنبت أو تضر العُشَّ ، ولذلك تجده يشقُّ الحبة نصفين حتى لا تنبت .

ولكن العلماء فُوجِئوا فى أعشاش النمل بوجود حبة الكزبرة مشقوقة أربعة أقسام ، دون غيرها من الحبوب ، فبحثوا وراء هذه الظاهرة فوجدوا أن

حبَّة الكزبرة تتكون من أربع غرف ، كل غرفة صالحة للإثبات ، فكان لا بُدَّ أن يشقها النمل إلى أربعة أقسام .

فمن الذى علَّم النمل أن يفعل ذلك ؟

إنه الذي خلق فَسوَّى (١) ، والذى قدَّر فهدى .

إذنْ : فقول الله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

أى : كثير من الدواب لا تحمل رزقها معها ، ولكن الله يرزقها وإياكم .

أى : أنه سبحانه يرزق هذه المخلوقات ، ونحن معها ، لم يذكر الإنسان أولاً . مع أنه سيِّد المخلوقات ، وكلها تتبعه ؛ ليُبيِّن لنا أن مسألة الرزق لا دَخْل لها بالعقل أو الشَّطارة .

فالله يرزق هذه المخلوقات ، كما يرزقك أيها الإنسان ، وربما يرزقها قبلك .

فالرزق مضمون عند الله سبحانه ؛ لأنه الخالق والرازق .

ومن العجيب أن رزقك ليس هو ما تملكه ، ولكن رزقك هو ما تنتفع به .

---

(١) سَوَّى الشيء تسوية : عَدَّله وجعله لا عوج فيه . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : جعلك كاملاً . وقال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار]

فقد تملك أشياء ، ولكنها ليستْ من رزقك ، فقد تُسرق أو تضيع منك نقود ، أو حتى يرثها الغير .

حتى فى أقلِّ شىء ، وهو الطعام ، فقد تكون فى انتظار الطعام على سُفْرتك فى المنزل ، وبعد ذلك يأتون لك به ، وقد يحدث أن يقع طبق معين على الأرض ، فلا يأكله أحد.

فهذا ليس من رزقك ؛ لأنه لو كان من رزقك لأكلته ، واستفاد به جسمك.

وأحيانًا يكون الأكل فى فَمِك ، وبعد أنْ تمضغ اللقمة أو قطعة اللحم مثلاً ، تُلقِى بها لأىِّ سبب من الأسباب دون أن تبلعها ، لأنها ليستْ من رزقك.

وأكثر من ذلك قد تأكل الطعام ويُهضَم ويمتصُّ ويصير دمًا يجرى فى العروق ، وبعد ذلك تُصاب بجُرْح صغير ، فينزل منك بعض الدم ، ويقع على الأرض ، فتأتى ذبابة أو نملة وتمتص هذا الدم ؛ لأنه رزقُها وليس رزقك أنت.

كذلك الحشرات الصغيرة التى تتغذى على دم الإنسان ، كالبعوض وغيره ، هذه الحشرات لا تحمل رزقها معها ، ولكنها تأخذه جاهزًا .

ومن العجيب أن الناس الذين رأوا التماسيح فى أعالى النيل نقلوا لنا ظاهرة عجيبة ، أنهم رأوا التمساح من هؤلاء يقف بعد أن يأكل طعامه ، فيفتح فمه ليأتى الطير ويدخل فَمَه ، ويتغذَّى على بقايا الطعام بين أسنان التمساح.

فانظر إلى هذا الطائر الضعيف يتحصَّل على غذائه من فَمِ التمساح ، الذى يخاف منه الناس.

والأعجب من ذلك أن الصياد حينما يأتى ليصطاد التمساح ، وهو فى حالة الاسترخاء هذه على شاطئ النيل تجد هذا الطائر يصرخ صَرْخة يفهم التمساح منها أنه فى خطر ، فيغوص فى الماء.

إذن : الرزق مضمون عند اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

والأمة: طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد، وأفرادها متساوون فى كل شىء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة.

فالأمة : هى جماعة وطائفة لها جنسٌ يجمعها ، ولها تميُّزات أفرادية ، وهى تلتقى فى معنى عام.

فهذه المخلوقات التى نراها والتى لا نراها أُمَمٌ أمثالنا ، لها نظامُ حياة ، ولُغة ، ومعيشةٌ ، وتخطيط .. إلخ.

فكُلُّ الدوابِّ دون الإنسان أعطاها الإلهُ الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة .

ويقول تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ (١) تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التى خلقها الله فى الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم.

وهذا ليس تسبيحَ دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى .

فإن فَقَّهك الله تعالى فى لُغاتهم لعلمتَ تسبيح الكائنات ، بدليل أنه عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير ، وسمع النملة تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

والهُدْهد قال لسليمان عليه السلام مَا رآه عن بلقيس ملكة سبأ :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

إذن : فكُلُّ ما فى الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ، ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان .

---

(١) الفقه : العلم بالشىء والفهم له . وقال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٤٢) : « ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] أى : لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ، لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات . وهذا أشهر القولين ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفى حديث أبى ذر أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات ، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل ».

والجن خَلْق من خَلْق الله ، فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الإنس مَرْئيًا ، وخلق الجن مَستوراً ، حتى لا نعتقد أن خَلقَ الله لحيٍّ كائن ، يجب أن يتمثَّل فى هذا القالب المادى.

بل سبحانه يخلق ما يشاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها .

كُلُّ ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية ؛ لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى لا تُدْرَك ولا تُرَى ؛ لأننا لا نعلم وجودًا لشىء إلا إذا أحسسناه.

ولكن الحق سبحانه يوضح أنك لن تستطيع أن تدرك كل ما خلقه الله ، فليس حِسّك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك ، لأن حِسّك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى بقانون ، بحيث إذا بَعُدَ المرئىّ عنك امتدادًا فوق امتداد بصرك ، فلا تراه.

وكذلك أذنك تسمع ، فإن بَعُدَ الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع.

كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ، ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا فى وجودنا المادى أمثالاً تُقرِّب لنا ذلك الخَلْق الخفىّ من الجن ومن الملائكة.

والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام فى الإنس طائعون وعاصون ، فكذلك فى الجن طائعون وعاصون .

والحق سبحانه قال:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ(١) مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(٢) ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن]

إذنْ : فمن الجن مَنْ هو مؤمن ، ومن الجن مَنْ هو عَاصٍ ، والعَاصِي من الجن يُسَمّى شيطانًا .

وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ؛ لأن الشيطانَ من المخلوقات التى ذكرها الله من عالم الغيب ، وحُجَّة وجودها هو تصديقُك لمَنْ قال عنها .

والشيطان هو عَاصِي الجن ، ونحن لم نَرَ الشيطان ، ولكننا علمنا به بوساطة إعلام الحق الذى آمنَّا به فقال : أنا لى خَلْق مُستتر ؛ ولذلك سمَّيتُه الجن ، من الاستتار ، والعاصى من هذا الخلق اسمه « شيطان» .

إذن : فإيماننا به لا عَنْ حِسّ ، ولكن عن إيمان بغيب أخبرنا به مَنْ آمنا به.

وحين نجد شيئاً اسمه الإيمان يجب أن نعرف أنه متعلق بشىء غير مُحسٍّ ؛ لأن المحسَّ لا يُقَال لك آمِنْ به ، لأنه مشهود لك ، فأنا لا أقول : أنا أؤمن بأن المصباح مُنِيرٌ الآن ، أنا لا أؤمن بأننا مجتمعون فى المسجد الآن .

لا أقول ذلك ؛ لأن هذا وَاقِعٌ مَشْهود ومُحَسّ .

إذن : فالأمر الإيمانىّ يتعلق بالغيب ، مثل الإيمان بوجود الملائكة .

---

(١) النَّفر : ما دون العشرة . والجمع : أنفار . قال أبو العباس : النفر والقوم والرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم [لسان العرب ـ مادة : نفر] .

(٢) العجب : روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شىء خفى سره أو استعظامه .

فـإذا ما كُنَّا قـد آمنَّا بالغيب نجـد الحقَّ سـبحـانه وتعالى يُعطِى لنا صـورة للشيطان ، ولكنه حين يعطينا صورة للشيطان ، أو لرأس الشيطان المميِّزة له .

يقول جَلَّ شأنه :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا[1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

وشـجـرة الزقـوم فى الآخـرة فى النار ، إذن : فـنحن لا نراها ، ورءوس الشياطين لا نراها ، فكـيف يُشبِّه الله ما لم نَرَهُ بما لم نَرَهُ ، يُشـبِّه شيئاً مـجهولاً بشىء مجهول؟

نقول: نعم ، وذلك أمر مـقصود للإعجاز القـرآنى ؛ لأن للشيطان صورة مُتـخيَّـلة بَشِعـة ، بدليل أنك لو طلبتَ من رسـامى العالم فى فَنِّ الكاريكاتـير ، وقلت لهم: ارسمـوا لنا صورة الشيـطان ، ولم تُعْطِهِم ملامح صورة مـحددة ، فكل منهم يرسم وَفْق تخيُّله كيانًا غايةً فى القُبْح .

فهذا يُـصوِّره بالقبح من ناحيـة ، وذاك يُصوِّره بالقبح من ناحـية أخرى ، بحيث لو جمعتَ الرسوم لما اتحد رَسْم مع رَسْم .

إذنْ : فكل واحد يستبشع صورة يرسمها .

---

(١) طَلْع النخلة : نَوْرُها الذى هو أصل ثمـارها ، ويكون صغيـر الحجم أبيض منظمًـا منضودًا . قال ابن كـثير فى تفسـيره (٤ / ١٠) : «أى : أصل منبتـها فى قرار النار، طلعهـا كأنه رءوس الشياطين تبشيع لها ، وتكريه لذكرها ».

وساعة نعطى الجائزة لمن رسم صورة الشيطان ، أنعطى الجائزة لأجملهم صورة ، أم لأقبحهم صورة ؟

إننا نعطى الجائزة لصاحب أشدِّ الصُّوَر قُبْحاً .

إذنْ : فصورة الشيطان المتمثلة صورة بَشِعة قبيحة ، ولو جاء على صورة واحدة من القُبْح لاختلف الناس حول هذه الصورة ، فلعلَّ هذا يكون قُبْحاً عندك ، ولا يكون قُبْحًا عند آخر .

ولكن حين يُطلق الله أَخْيلة الناس فى تصوُّر القُبْح ، يكون القُبْح ماثلاً وواضحًا فى عمل كُلِّ إنسان ، فتكون الصورة أكمَل وأَوْفى ، فالأكمل والأَوْفى أن يكون القُبْح شائعًا فيها جميعًا .

فإذا كنا نتخيل الشيطان فى صورة مُسْتقبحة مُسْتبشعة ، فالأبشع منها هو رزقه الذى قدّره الله لتمرده وخروجه على طاعة الله ، وردّه الأمر على خالقه فى السجود لآدم ، مما كان سبباً فى عداوته لآدم وذريته ، وكان عداؤه هذا هو سبب طرده ولعنته .

فقد جعل الله رزقه مما لم يُذْكر اسم الله عليه ، والحق سبحانه سمَّاه «فِسْق» ، فقال سبحانه :

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

وما لم يُذْكر اسم الله عليه هو ما ذكره الحق سبحانه فى قوله:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ .. (١٧٣)﴾

[البقرة]

والإهْلال هو رفع الصوت ، ولذلك يُقال: هَلَّلَ أى رفع صوته بـ «لا إله إلا الله» ، ويُسمى الهلال هلالاً ؛ لأننا بساعة نراه نُهلِّل ونقول «الله أكبر ، ربِّى وربُّك الله» .

وساعةَ يُولد الولد ، ويخرج من بطن أمه ينتبه إلى حياته وإلى ذاتية وجوده ، بعد أن كان مُلْتَحمًا بذاتية أمه فهو يصرخ ، إنه يبدأ حياته بالصراخ ؛ ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصرخته يطمئنون .

وهكذا نعرف أن الإهلالَ هو رَفْع الصوت .

وقول الحق تعالى:

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ .. (١٧٣)﴾ [البقرة]

يعنى: رفع الصوت لحظة الذبح . والذبح نوعان:

ـ ذَبْح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك .

ـ وذَبْح قُرْبى لله.

وما أُهِلّ به لله هو ذَبْح قُرْبى لله ، أما ما أُهِلَّ به لغير الله فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط ، وتقرُّباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون الله.

وما دام الله هو الذى أعطى الحيوانات وسخَّرها لنا من أجل أنْ نأكلها ، فعلينا أنْ نذكرَ المنعِم ، وأنْ تكون القُرْبى لله وحده هى القَصْد الأول .

ولذلك فالمؤمنون يتقرَّبون ويأكلون ، أما الكفار فيأكلون ولا يتقرّبون لله ، وإنما يذبحون ويتقرَّبون إلى آلهتهم .

فما أُهِلَّ لغير الله فيه شِرْك بالله ، فافتقد ذكر الله الذى ذَلَّل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الحِسِّ والحركة وغير ذلك .

لذلك يُسمّى الحق سبحانه ما لم يُذكَر اسم الله عليه بـ «الفسق» .

ويقال : فسقتْ الرُّطَبة. أى: بَعُدَتْ القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثمرة أو البَلَحة حمراء تكون القِشْرة مُلتصقة بالثمرة ، بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها.

فإذا أصبحت الثمرة أو البَلَحة رُطَباً تسودُّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة ، بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسْر ؛ لأنه غير مُلْتصق به .

وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه ، ولهذا تجد أن الدين سِيَاجٌ [1] يمنع الإنسان من أنْ يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، وحين ينفصل الإنسان عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلتْ عن سياجها.

ومعلومٌ أن إبليس فَسَق عن أمر ربِّه ، فتمرَّد واستكبر على الامتثال لأمر ربه بالسجود لآدم ، فقال تعالى :

(١) السياج فى اللغة: الحظيرة من الشجر تُجعل حول الكرم والبستان. ويقال: حظر كرمه بالسياج ، وهو أن يُسيِّج حائطه بالشوك لئلا يتسوَّر. (لسان العرب ـ مادة : سيج) هكذا أمر الدين فهو سياج حول الإنسان يحميه من خصومه الشيطان وأتباعه ، وكذلك يمنعه من الخروج على حدود الله .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ.. ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف]

فلم يَكَدْ إبليس يصدر له الأمر من الله بالسجود لآدم، حتى امتنع عن السجود تكبُّرًا منه، ولم يُجاهد نفسه على طاعة الله، فمعصية إبليس هى معصية فى القِمّة؛ لأنه رَدَّ الأمْر على الآمِر، وظنَّ أنه خَيْرٌ من آدم، ولم يلتزم بطاعة الله.

ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى، فطرده الله من رحمته وجعله رجيمًا.

وبعد أنْ أعلن إبليسُ عن تمرده على أمر ربه، وتعاليه على آدم عليه السلام عاقبه الحق سبحانه على ذلك، فقال:

﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص]

والرجيم: هو الملعون، يلعنه الله، ويلعنه اللاعنون، واللعنة هى الطرد من رحمة الله.

ومادة «اللَّعْن» وردتْ فى القرآن إحدى وأربعين مرة.

فساعةَ تأتى للعذاب تكون للطرد والإبعاد بغضب، وهو الخلود فى النار.

وساعةَ يكون الطردُ إبعادَ تأديبٍ، فلا يوجد بغضب، لأن المؤدب لا يغضب على مَنْ يُؤدِّبه، وإنما يغضب لمن يُؤدِّبه.

وعندما يحدث الطردُ من بعد غضب، فذلك دليل على أنه ليس من بعد

ذلك رَجعة ، فالإنسان إذا تُرِك لشيء صامت ليعذب به كالنار يقول لنفسه: « ربما جاء مَنْ يرقّ لحالى ، ويعطف علىَّ فَيُخرِجنى من النار» .

إنه يقول ذلك لنفسه ؛ لأن الذى يُعذّب به صامت لا عاطفة له ، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من الله والملائكة والناس ، كما يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)﴾

[آل عمران]

والشيطان موصوفٌ بأن الله طرده من رحمته ، فالحق سبحانه يقول:

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨)﴾ [النساء]

لماذا هذا اللَّعْن ؟

لقد أذنب الشيطان وعصى الله ، وآدم أذنب أيضاً وعصى الله .

فلماذا لعن الله الشيطان؟ ولماذا عفا الله عن آدم ؟

فأما آدم ، فقال عنه الحق سبحانه :

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ[1] فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

[البقرة]

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١/ ٨١) قول مجاهد فى تفسير هذه الكلمات أنهما قالا : «اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم».

وبهذا نعرف أن هناك فَرْقاً بين أنْ يردَّ المخلوق على الله حُكْمًا ، وبين أن تُفعل المعصية بسبب الغفلة .

فحين أمر الحقُّ سبحانه إبليسَ بالسجود لآدم ، قال إبليس :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وهذا رَدٌّ للحكْم على الله ، وهذا يختلف عن معصية آدم وحواء ، فقد قالا :

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾

[الأعراف]

وهكذا نجد أن آدم ـ عليه السلام ـ قد اعترف بحكم الله ، وأقرَّ بأنه لم يقدر على نفسه.

ولذلك ، فليحذر كل واحد أنْ يأتيَ إلى ما حرَّم الله ويقول: لا ، ليس هذا الأمر حراماً ، لكن إنْ كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول: إن ما حرم الله حرام ، لكنى غير قادر على نفسى .

وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ويكون عاصياً فقط ، ولعل التوبة أو الاستغفار يُذهبان عنه سيئات فِعْله ، أما مَنْ يُحلِّل ما حرّم الله فهو يُصِرّ على الكفر ، ويكون قد طمس الله بصيرته نتيجة ذلك .

وسبحانه تعالى يصف الشيطان بقوله سبحانه:

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ ... (١١٨)﴾ [النساء]

أى : طرده من رحمته ، وليتيقظ ابن آدم لحبائل[1] الشيطان وليحذره ، لأنه مطرود من رحمة الله .

لذلك كان رزقه من أخبث شيء ، وهو ما لم يُذْكَر اسم الله عليه .

❑❑❑

(١) الحبالة : التى يُصاد بها . وجمعها حبائل . وفى الحديث: النساء حبائل الشيطان أى مصايده. (لسان العرب ـ مادة حبل).